

الامامة عند الشيعة الاسماعيلية

الموسم

طارق مجيد تقي العقيلي*

تحتل الامامة مكانة خاصة في تاريخ الفكر الاسلامي، اذ اضاف الاسلام الشيعي اليها بوصفها نظرية، بعداً فلسفياً فجعل منها مبحثاً عقائدياً ضمن مباحث التوحيد والنبوة، لان المفهوم الشيعي للامامة هي مواصلة العملية التغييرية الشاملة التي بدأها النبي (ص) حتى بعد وفاته. فضلاً عن ذلك فان الامامة تعكس الجانب الروحي الخصب عند الشيعة. فهذا الشأن كان له الفضل الاكبر في دفع الاسلام عن التحجر في قوالب جامدة. فقد اغنى المضمون الروحي للاسلام واشاع الحياة الخصبية القوية التي وهبت له البقاء قوياً غنياً قادراً على اتباع النوازع الروحية للنفوس حتى اشدّها تمرداً وقلقاً. ومن هذا وذاك كثرة الآراء والاتجاهات التي تطرقت الى الامامة بالبحث والاستقصاء، فاصبحت من المباحث المهمة ليس عند الشيعة فحسب، بل عند جميع الفرق والتيارات الاسلامية. لذلك كان لكل فرقة او تيار تصور خاص امنت به وانطلقت منه في دعم آرائه، وليس من الضروري ان تكون تلك الآراء والاتجاهات على قدر واحد من التوافق والانسجام، فكل واحد منها يتبنى تصورات وآراءه ليؤسس بذلك الردود التي تنفي نظرية الطرف الآخر أو ترد عليها.

والامامة بالكسر في اللغة إقامة الصلاة، وعند المتكلمين هي خلافة الرسول (ص) في إقامة الدين وحفظ حوزة الاسلام. وذلك منصب خطير فيه من السمو والرفعة وشرف لا يناهله أي طالب له. من هنا وضع فقهاء الفرق الاسلامية شروطاً اختلفوا عليها في اختيار الامام.

ووفق النظرة الشيعية فان الامامة منصب الهي فليس لكل قرشي هاشمي له الحق في ادعاء الامامة. بمعنى أن الامامة جمعت بين الدين والدنيا في المنصب القيادي للامة الذي لا يأتي بالاختيار والانتخاب، إنما هو تشريع من الله سبحانه وتعالى، كما هي النبوة، فאלله هو الذي يصطفى الانبياء من خلقه، وقد تجمع النبوة والامامة في آن واحد كما في ابراهيم (ع)، اذ اتته منزلة الامامة بعد النبوة، الا ان الامامة ليست هي النبوة. وقد ناقش السيد عبد الاعلى الموسوي السبزواري هذه المسألة في تفسيره من وجهة نظر الامامية الاثنا عشرية إذ قال: «فالآن ظاهر قوله تعالى: ﴿واذ ابتلى ابراهيم ربه﴾ ان الابتلاء والامتحان كان بعد وجدان ابراهيم (ع) لمرتبة النبوة وخروجه عن الامتحانات الالهية وانتمائه لهن ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿اني جاعلك للناس اماماً﴾ اذ الظاهر ان الجعل تعلق بأمر

* باحث أكاديمي / مدرس مساعد وعضو الجمعية التاريخية العراقية

جديد وكان بعد خروجه عن الامتحان والابتلاء والا لا معنى لان يتعلق الجعل بأمر كان حاصله.. ويدل على كون الجعل في المستقبل وصدقه الى معنى جعلت في الماضي خلاف الظاهر.. وبالجمله ان توهم كون المراد بالامامة هي النبوة خلاف الظاهر المنساق من الآيات المباركة الواردة في القصة.. وبهذا فان منصب الامامة عند الفرق الشيعية عموماً هو جعل تكويني من الله سبحانه وتعالى وليس لاحد ان يتدخل فيه، ويأتي بتبليغ من الله لانبياؤه فقد ذكر الطبرسي في احتجاجه قوله: «فلما وقف بالموقف، محمد (ص)، اتاه جبريل (ع) عن الله عز وجل فقال يا محمد ان الله يقرؤك السلام ويقول لك انه قد دنا اجلك ومدتك وانا مستقدمك علي ما لا بد منه ولا عنه محيص فاعهد وقدم وصيتك واعمد ما عندك من العلم وميراث علوم الانبياء من قبلك والسلاح والتابوت وجميع ما عندك من آيات الانبياء فسلمه الى وصيك وخليفك من بعدك حجتى البالغة على خلقي علي بن ابي طالب (ع)، فاقمه للناس علماً وجدده عهده وميثاقه وبيعته وذكرهم ما اخذت عليهم بيعتي وميثاقي الذي واثقتهم وعهدي الذي عهدت اليهم من ولاية ولي ومولاهم ومولى كل مؤمن ومؤمنة علي بن ابي طالب فاني لم اقبض نبياً من الانبياء الا من بعد اكمال ديني وحجتي واتمام نعمتي على خلقي باتباع ولي وطاعته.. فالامام بذلك يكون وارث علوم الانبياء وآياتهم وبخاصة ميراث موسى (ع)، التابوت والسلاح حتى يكون على الناس حجة.

مما تقدم، يظهر ان المرتكز الاساس في بناء فلسفة الامامة في المنظور السياسي عند عموم الفرق الشيعية، جاء من توظيف التأويل الباطني في تفسير الآيات القرآنية. وبالمثل انطبق الشيء نفسه في شخصية الامام وقديسيتها، وجعل هذه الشخصية مطابقة لشخصية النبي في التكوين والخلق، بأنهم ارواح نورانية سماوية تعيش على الارض. وسنجد هذا التوظيف اكثر واشمل وضوحاً عند الشيعة الاسماعيلية.

شهد عصر الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) انقساماً خطيراً في افكار وآراء اتباعه من الشيعة، مؤلفين من ذلك فرق شيعية عدة تباينت واختلفت معتقداتها وفلسفاتها في مواضيع شتى، لسنا هنا معنيين بالتطرق اليها. الا انه يمكن الإشارة الى ظهور الاسماعيلية بوصفها فرقة شيعية تأتي من حيث الاهمية الفكرية والعقائدية بالانتساع والانتشار بعد الفرقة الشيعية الاثنا عشرية. فقد احتلت الاسماعيلية مساحة واسعة من الاتباع والتأثير الفكري في العالم الاسلامي. كما انها ادت دوراً مهماً على مسرح احداث التاريخ الاسلامي سواء كان في الجانب السياسي أم على صعيد الفكر والفلسفة والعلوم الاخرى.

لقد نسجت الاسماعيلية حول تاريخ حياة اسماعيل بن جعفر الصادق ما يشبه الاسطورة، فقد تأسى والده بالنبي (ص) والامام علي (ع)؛ اذ لم يتزوج على ام اسماعيل في حياتها بواحدة من النساء ولا اشترى جارية، مثل سنة رسول الله في حق خديجة ومثل سنة الامام علي في حق فاطمة. ووفق تلك السنة اراد الامام الصادق، بما قالته الاسماعيلية، ان يهيأ لأبنه الاكبر، اسماعيل، من عناصر الاعداد المسبق المحاط بالعناية الالهية، بمعنى ان تاريخاً قدسياً سجل لاسماعيل قبل ان ينال درجة الامامة. وهذا التاريخ القدسي بقي ملازماً لاسماعيل حتى بعد وفاته في حياة ابيه، فموته اماماً

بوجود ابيه الامام، كان دلالة كبرى على امامه ابنه محمد. من هنا يلاحظ ان الامام يؤلف الشخصية الاساسية في مجموع النظام الفقهي والسياسي للاسماعيلية، ولما كانت الامامة هي الخلافة بعد الرسول التي تعد جزءاً من النظام السياسي الاسماعيلي، لا بد والامر هذا ان تكون الولاية أو الموالاتة للامام والانتماء اليه، السند الفقهي الذي يتكامل مع النظام السياسي لنظرية الامامة الاسماعيلية، لان الولاية، بحسب المفهوم الشيعي الاسماعيلي، هي البراءة من اعداء الامام، وهذا ركن شيعي مهم واساسي في نظريتهم عن الامامة. ففي هذا الشأن قامت الفلسفة الاسماعيلية على الادلة العقلية والدينية النقلية، نفسها التي ساققتها الشيعة الاثنا عشرية في اثبات صحة آرائهم في الولاية. ومثلما نجد هشام بن الحكم ومؤمن الطاق (٩٩) تلامذة ابرار لاستاذهم الامام الصادق في الدفاع عن عقيدتهم ومنظرين لها، نجد الاسماعيلية تتخذ من ميمون القداح وابنه عبد الله، واياً كان هذا الاول حقيقة ام ستاراً لمحمد بن اسماعيل، مدافعين ومنظرين ومرجعية تنساق وراء افكارهم وتعاليمهم. وكذلك استعانت الفلسفة الاسماعيلية بالمذهب التوأم للشيعة، المذهب المعتزلي في سوق الحجج والبراهين العقلية في دفاعهم عن الشريعة ومطابقتها للعقل. لذا نجد الداعية الاسماعيلية، ابو يعقوب السجستاني، في اثبات النبوات يستعمل منطق المعتزلة وأدواتهم بهذا الشأن. فالعقل عند السجستاني، الرسول الاول في البعث الالهي للكون. فاذا رفضنا طروحات العقل، نكون بذلك قد انكرنا النبوات. ولكن ما جاء الانبياء به متطابق مع البديهييات الاولى عند العقل، فالدعوة الاولى التي جاء الانبياء بها هي الاقرار بالخالق الاول، وهذه من البديهييات العقلية الاولى وعليه ان اول رسول هو العقل. ويتعبير السجستاني في هذه المماثلة، قال «لما كانت الرسل صلوات الله عليهم، انما اتت لتأمرنا بالمحمودات وتنهانا عن المذمومات التي هي سبب ظهور الحياة النفسانية ووجدنا العقل ايضاً يأمرنا بالمحمود الحسن وينهانا عن المذموم القبيح وان الرسول انما يؤدي الينا ما تعرفه عقولنا فتقبل منه ذلك من اجل معرفة عقولنا».

وعلى وفق الفلسفة الاسماعيلية في المطابقة والتماثل، فان العقل الكلي، مبدع الكون، هو في العالم العلوي يقابله في العالم الجسماني، الامام. وفي بعض تقارير الاسماعيلية، خلعت على الامام اسماء وصفات العقل الكلي وقدرته، فالامام الهي الذات سرمدى الحياة. فقد صرح في هذا الجانب الداعية الاسماعيلي شهاب الدين أبي فراس في رسالته: مطالع الشمس في معرفة النفوس، قوله «واعلم بان الامام الموجود للانام لا يخلو منه مكان ولا يحوزه مكان لانه الهي الذات سرمدى الحياة، ولو لم يتأنس بالحدود والصفات لما كان للخلق الى معرفته وصول؛ فهو شمس فلك الدين وآية الله في السموات والارض، وبه صلاح العالم بأسره كما ان الشمس هي الباعثة في العالم روح الحياة. وهو قلب هذا العالم الكبير ومدبره وممده، فبمعرفته وطاعته والتخلي عن ضده صلاح المؤمنين» وقال «الائمة قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عباده، لا يدخل الجنة الا من عرفهم وعرفوه ولا يدخل النار الا من أنكرهم وأنكروه، فهم اوتاد الارض السرمديون الازليون والاركان المتنقلة في الادوار والاكوار». والتوجب واللطف الالهي ان تهتدي المخلوقات «فالنطقاء هم الذين ارسلوا لهداية المخلوقات وتنظيم المبدعات وسن الشرائع والاحكام والتبليغ والانذار والشهادة، فهم العباد المكرمون الذين لا يسبقون

بالقول وهم بأمره يعلمون»، أولهم آدم وآخرهم محمد (ص)، وسوف يأتي بعده، قائم الزمان بالجهاد حثاً على المواظبة على فروض الدين والاجتهاد. ولكن كيف يتأتى للمخلوقات بلوغ تلك السعادة أو العلم بما قال به أول الناطقين وما انتهى إليه آخرهم (ص)؟ تقول الاسماعيلية لا يأتي الا بحلول العقل الكلي في الانسان المتمثل بالنبي وفي الائمة الذين يخلفونه من بعده. ولما كان النبي ناطقاً فالامام هو الاساس الذي يفسر شرائع الناطقين معتمداً على التأويل والباطن. ولذلك يقولون ان محمداً هو الناطق وعلياً هو الاساس الناطق بحقائق التأويل والقائم من بعده بالحق المبين ونور الله المدل الى سواء السبيل. والامام هو الحبل الموصول بسلسلة الناطقين، فلا طاعة الا بولي (امام). وقد اوقفت الاسماعيلية بقاء الاسلام بوصفه ديناً، على الانقياد الى الائمة الراشدين ارباب الكشف والتأويل، وبالا اعتقاد باصحاب السنة والتزليل، لذا لا مذهب يؤمن بذلك الا مذهب اسماعيل على حد قولهم. الا ان قيام الشرائع والاديان لا يتم، بحسب قول الداعية الاسماعيلية، شمس الدين بن احمد بن يعقوب الطيبي، في رسالته: الدستور ودعوة المؤمنين للحضور، الا بظهور صاحب الزمان.

والامام محور العقيدة الاسماعيلية، لذا فان تعظيم شخصية الامام لا يقارن باي شخصية اخرى، اذ ان شخصية الامام ليس كبقية الشخصيات البشرية، وان كان هو في الظاهر بنسبة الناس في الاكل والشرب والنوم والموت الا ان ناسوت الامام في التكون والمرتبة في الابداع الاول للوجود جاء من مادة نورانية، اذ انتقلت هذه المادة من نبي الى نبي حتى وصلت محمداً ومنه الى علي وفاطمة واجتمع النور في الائمة الفاطميين. وقد امر الله آدم ان ينظر الى قمة العرش الالهي حيث شاهد تلك الاجسام النورانية المقدسة منعكسة في هذا القدس العظيم كما تنعكس صورة الوجه في مرآة صافية. وفي مورد علم الامام، فان الاسماعيلية لم تفصله عن التكون النوراني الاول في خلق الامام، ففي الراوية الاسماعيلية عن الامام محمد الباقر (ع) في تفسيره لآية النور قال «كمشكاة فيها مصباح يعني نور العلم في صدر النبي. المصباح في زجاجة، الزجاجة صدر علي. علم النبي علياً علماً يوقد من شجرة مباركة هي نور العلم». كما أولت الاسماعيلية قوله تعالى: «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين»، فالنور هو محمد والكتاب القرآن وان نور محمد يسري في الائمة من وصيه علي بن ابي طالب من بعده. وبذلك كان الامام علة المخترعات وحياة الكل، بحسب قول الداعي شهاب الدين ابي فراس، «فقد ترتب به الخلق، والدين تأنس بواحد للوجود، وهو موجود غير مفقود لا يدركه الزمان ولا يدخل تحت حوادث الايام، وهو نور ساذج في الملكوت الاول، ابدع الله به الحدود الروحانية واخترع الهياكل الجرمانية وخلق الانسانية فاذا فرغت مدته وحان وقته انتقل هذا الامر الى شخص آخر من ذريته وهو الذي ينص عليه ويشير اليه».

وايضاً عن طبيعة جسد الامام وناسوته فقد اسرفت الاسماعيلية في الايغال واسبغت عليه كلاماً أسطورياً، فجسد الامام ليس جسداً كبقية اجساد الناس الاخرى من اللحم، اذ ان هذا الجسد انما ينتج من مغناطيس كوني يمارس عمله على اجساد المستجيبين الاثيرية ونفسهم الريحية، وهذه البقايا الاثيرية تتصاعد من سماء الى سماء ثم تتنزل مطهرة ومعها اشعاعات ثمرية فلا يراها الادراك النظري ثم تحط على شكل ندى سماوي على سطح ماء صاف او على الثمار حتى اذا ما

استهلك إمام الفترة هذا الماء وهذه الثمار هو وزوجته يصبح الندى السماوي برعماً لجسد لطيف هو جسد الامام. هذه الدراما الاسطورية في عملية خلق الامام تكشف لنا ان مولد الامام بناسوتين الاول خاص وهي الارواح النورانية والصورة والنفوس، والثاني طبيعي وهو الجسد المادي المتمثل بالامام الانساني.

وعلى الرغم كل ما تقدم، وما احاطت الاسماعيلية به شخصية الامام بهاله قدسية وعظمة حتى انهم اخرجوها عن نطاق الخلق للانسان، الا ان الاسماعيلية لم تسبغ الالهية ابدأ على الائمة؛ بل انهم حاربوا الغلاة الذين ألهاوا واعتبروا ان الامام إله. وقد عد الاسماعيلية ان الائمة عباد مخلوقون وكائنات مربية خلقوا من الطين ولكنهم من طينة اسمى من طينة البشر واختراهم الله اختياراً أزلياً كي يكونوا حجة على الخلائق.

والواقع ان تهمة تأليه الامام ساقطتها بعض الفرق الاسلامية التي تكن العداء والحقن على الاسماعيلية. او لعل ذلك، وهو الاصب عندنا، هي الدعايات السياسية التي بثها العباسيون ضدهم. والملاحظ ان افكار التآليه تسربت الى الاسماعيلية عن طريق ابي الخطاب الذي قال بألوهية الامام جعفر بن محمد وآبائه وان الائمة هم ابناء الله واحبائه. والمراجع والمصادر التاريخية طالما تلصق انتماء ابي الخطاب الى الاسماعيلية، على الرغم من ان المصادر الاسماعيلية لا تؤكد انتماء ابي الخطاب الى الفرقة ويرأي برنارد لويس، ان الاسماعيلية تنكر أي علاقة بينها وبين رجال ساءت سمعتهم كأبي الخطاب. والأهم ما في ذلك أن تهمة التآليه لم ترق الى مستوى تجرباً فيها الفقهاء وعلماء الدين بتكفير الاسماعيلية واعتبارهم فرقة مرتدة عن الاسلام، حتى اننا نجد الامام الغزالي المدافع القوي عن العقيدة الاشعرية والذي يضمر العداء والكره الشديد للاسماعيلية، يقف موقفاً لا يقوى به على الافتاء بتكفيرهم واعتبارهم فرقة مرتدة عن الاسلام. ولم يكن موقفه نابع من عدم التأكد أو الحيرة في أمرهم. غير أن الخلاف بينه وبينهم هو خلاف وخصومة سياسية، فهو من هذا الجانب يصب غضبه عليهم، وان اغلب الحجج الدينية التي كان يحاججهم بها كانت في الواقع آراء سياسية يدعم فيها موقف الخليفة العباسي ضدهم؛ ففي كتابه فضائح الباطنية أو المستظهري قال عن ذلك «ومهما سئلنا عن واحد منهم أو عن جماعتهم وقيل لنا: هل تحكمون بكفرهم ؟ لم نتسارع الى التكفير الا بعد السؤال عن معتقدتهم ومقالتهم ونراجع المحكوم او نكشف عن معتقدتهم بقول عدول يجوز الاعتماد على شهادتهم، فاذا عرفنا حقيقة الحال حكمنا بموجبه».

والإمام الغزالي يضع شروطاً حتى يستطيع ان يحكم عليهم بالكفر والارتداد عن الاسلام، فهو لم يصرح انهم قالوا بمقالة توجب كفرهم ولكنه يقول اذا قالوا كذا وكذا وجب كفرهم وقتلهم. وكأن الغزالي يريد ان يقحم عليهم ما لا يقولونه وما لا يريدون ان يقولوه على اية حال. كما اننا نرى في الشأن نفسه فقيهاً زيدياً آخر وهو الامام يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٤هـ). لم يتعرض للاسماعيلية او نسب الكفر اليهم، بل طعن ونقد ورد على معتقداتهم وتأويلاتهم وسفه آرائهم وسماهم بكتابه «مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الاشرار» بالفرقة الباطنية الا انه لم يتجاوز الى حد تكفيرهم. ومهما كان، فان شخصية الامام تشكل وعياً حاضراً في ضمير اتباعه وشيعته، سواء كان حاضراً

ام غائباً وعلى مدار الزمان، وفي أي مكان تتواجد الشيعة فيه وعلى فرقهم المختلفة. فالامام في المنظور الاسماعيلي تدور حوله العقيدة والفلسفة والتاريخ والسياسة، فمن مرويات الاسماعيلية المشهورة «من مات ولم يعرف امام زمانه مات ميتة جاهلية»، أو أن الأرض لا تخلو من الامام فلكل وقت وعصر امام وآخرهم كان صاحب الزمان وبهذا الخصوص قال الداعي حجة العراقيين أحمد حميد الدين بن عبد الله الكرمانلي داعي الحاكم بأمر الله الفاطمي.

«أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون، قد جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً»، واستقر الوقت لصاحب يوم السبت القائم في الأرض مقام العقل في عالمه محط رحال، حمله النور في سالف الدهور مقصد الراحة وعنده تكون الاستراحة، ذو الكلمة المصونة والجوهرة المكنونة أنارت الكواكب وانتشرت وغارت البحار يوم لا ينفع نفس إيمانها ان لم تكن آمنت من قبل أو كسبت إيماناً خيراً.

وهكذا نلاحظ فلسفة الامامة عند الاسماعيلية قامت على اسس معرفية استمدت اصولها من نظريات فلسفية اسلامية اصطبغت بالاشراقية والفيثاغورية وغيرها من التأثير اليوناني وهي بذلك مقر للروحانيات على حد قول عارف تامر ومقر التأويل والوصول الى باطن الاشياء بعد الوقوف على ظواهرها.

مراجع ومصادر مختارة:

- ١- ابو الحسن علي بن اسماعيل الاشعري، مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين.
- ٢- ابو الفتح محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل بهامش الفصل في الملل والاهواء.
- ٣- ابو حامد الغزالي، فضائح الباطنية.
- ٤- ابو محمد الحسن بن موسى، فرق الشيعة.
- ٥- ابي منصور احمد بن علي بن ابي طالب الطبرسي، الاحتجاج.
- ٦- الامام يحيى بن حمزه، مشكاة الانوار الهادفة.
- ٧- السيد عبد الاعلى الموسوي السبزواري، تفسير مواهب الرحمن، الجزء الثاني.
- ٨- برنارد لويس، اصول الاسماعيلية.
- ٩- الدعوة الاسماعيلية الجديدة.
- ١٠- عارف تامر، اربع رسائل اسماعيلية.
- ١١- عبد القاهر بن طاهر ابي منصور البغدادي، الفرق بين الفرق.
- ٢١- علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام.
- ٣١- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي.
- ٤١- هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الاسلامية.